

نظرية الحضارة في فكر مالك بن نبي: دراسة في مقارنته لشروط النهضة

Malik BENNABI's civilization thought : A study of his approach to the renaissance conditions

رياض بن عربية

المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام-الجزائر- riadmag@yahoo.com

تاريخ النشر: 2023/06/05

تاريخ القبول: 2023/05/07

تاريخ الاستلام: 2023/04/03

ملخص: تستهدف هذه الدراسة البحثية الوقوف عند احدى أهم قانات الجزائر في التاريخ المعاصر ممثلة في شخصية المفكر مالك بن نبي، التي حاولت استشفاف الواقع الأليم التي كانت تمر به الأمة العربية الإسلامية آنذاك، والذي حال دونما تحقيق نهضتها الفكرية والحضارية، وبالتالي، تأخرها عن اللحاق بنظيرتها الغربية المتقدمة في مواكبة تطورات عصرها، جراء ما تعرضت له من محن وتحديات لعل أهمها يتمثل في الاستعمار. لذا، فقد انصبت جل اسهامات بن نبي في محاولة تقديم مشروع رؤية حضارية شاملة متكاملة حول أسباب تخلف دول العالم الثالث عموما، والعربي والإسلامي على وجه التحديد، وتوفير الأرضية الملائمة لشروط الانطلاق الحضاري، من خلال صياغة البدائل الممكنة التي تتوقف عليها عملية التحول الحضاري أو النهضة الحضارية للأمة.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، النهضة، مالك بن نبي، الفكرة الدينية، الثقافة.

Abstract:

The herein study seeks to shed light on one of most important Algerian figures in contemporary history, the intellectual Malek BENNABI. Who attempted to study and revelate the sad fact and hard reality of the Arab and islamic nation at that time, which hindered the achievement of her civilizational renaissance. Consequently, it has fallen behind the developed countries, owing to the difficulties and challenges, the main one is the colonial phenomnon. Thus, most of their contributions had focused on trying to theorize a comprehensive and global approach to the causes of the underdevelopment of third world, especially the Arab and Islamic countries. And the creation of an environment conducive to the conditions for civilized take-off, through the formulation of possible alternatives on which the nation's civilizational renaissance depends.

Keywords: civilization, renaissance, Malek BENNABI, religious idea, culture.

1. مقدمة:

يعتبر مالك بن نبي (1905-1973) من الشخصيات القلائل في تاريخ الجزائر المعاصر التي تركت بصمات مؤثرة وشواهد حاضرة في تاريخ الفكر الإنساني والتراث العالمي، وهذا من خلال سلسلة مؤلفاته وكتبه التي باتت تصدر تباعا منذ سنة 1946، إذ سرعان ما دأب الاهتمام بمقتضيات البحث والتحليل العلمي لمشكلات عصره، ويتخذ طريقه نحو التأليف والإنتاج الفكري، أين صدر له العديد منها في هذا الشأن.

بالموازاة مع ذلك، فقد حمل مالك بن نبي على عاتقه مسؤولية وهموم الدفاع عن ثوابت الأمة العربية الإسلامية من خلال تخصيص كل وقته وجهده لمعالجة مواطن الخلل والضعف والوهن الذي حل بمعظم بشعوب ودول العالم الثالث عموما والداء المزمن الذي أصيبت به الحضارة العربية-الإسلامية بوجه خاص، وما لحقها من تخلف وتأخر عن الركب الحضاري الغربي وحتى الشرقي، ومن ثمن فقد حرص المعني على النهوض بهذا الواقع المأسوي وتقديم حلول وبدائل حضارية من شأنها تحقيق شروط النهضة الحضارية لتلك المجتمعات والأمم العربية-الإسلامية، كما نهل من مصادر فكره الحضاري ورؤيته العالمية ثقافات وحضارات أخرى، خاصة الغربية والمتقدمة منها، إلا أنه مع الأسف الشديد لم يحظ في موطنه الأصلي ولدى أبناء عمومته بنفس الموضوع والهالة من الاحترام، مقارنة بما حظي به عند الآخرين، وهو ما يشكل إجحافا وتقصيرا في حق هذا الرجل النابغة المتبصر الذي لقبه الكثير منهم بـ: "فيلسوف الحضارة ورائد النهضة"، في حين يكاد يكون معروفا لدى أبناء عمومته، وهو ما بات يفرض علينا أكثر من أي وقت مضى سواء كأفراد أو كنخبة فكرية إيلاء هذا الرجل الرؤيوي والمتبحر في شؤون الحضارة والنهضة حقه من التقدير، عبر ضرورة العودة الى أطروحاته أفكاره ودراساته للنهل منها والاسترشاد بها، وإعادة بعثها من جديد كأولى خطوات الإصلاح نحو التغيير، تمهيدا لتحقيق مشروع النهضة الذي كان يصبو إليه مالك بن نبي في حياته.

بناء على ما تقدم ذكره، يمكننا طرح الإشكالية التالية: فيما تتمثل مقارنة مالك بن نبي الفكرية لمشروع الحضارة وتحقيق النهضة؟ تدرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية المحيطة بها، لعل أهمها تتمثل في:

- 1- دور العوامل الداخلية والخارجية في تبلور أفكار بن نبي؟
- 2- فيما تتجلى أهم اسهاماته الفكرية والحضارية؟

3- كيف تلقى الغرب والشرق رصيده الفكري والمعربي؟

وبالنسبة لفرضيات الدراسة المعتمدة في هذا البحث، فقد جاءت على النحو التالي:

1- كلما زاد وعي الإنسان بقيمته الأخلاقية ومسؤوليته التاريخية في المجتمع كلما ترسخت وتعمقت مداركه أكثر حول أهمية مشروع رسالته الحضارية في تحقيق شروط النهضة.

2- كلما اتسمت الحياة العامة في أي حضارة بفترة انتعاش ديني ونشاط عقلي، كلما أدى ذلك إلى تعزيز حظوظها في بلوغ متطلبات النهضة واقتراب دورتها الحضارية.

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يعالج موقف مالك بن نبي من مشكلات عصره وقضاياه المزمنة التي واجهت غالبية بلدان العالم العربي الإسلامي تحديداً، ومحاولة تشخيص واقع مجتمعه العويص انطلاقاً من انتمائه الحضاري ورسيدته الفكري، ومعرفة مواطن الضعف والهوان لتجاوز تلك المعضلات المزمنة المصاحبة لها، والتي حالت دونما لحاقها بنظيرتها الغربية، إضافة إلى حرصه الشديد على طرح المعادلات والحلول الناجعة للنهوض من كبوة الأمة العربية الإسلامية وإخراجها من براثن الانحطاط والتخلف، عبر تهيئة الأوضاع الملائمة والظروف المواتية لتحقيق شروط النهضة والفاعلية الحضارية.

أما بخصوص المنهجية العلمية المتبعة في ثنايا هذه البحث، فقد تم الاستعانة بخطوات المنهج التحليلي الوصفي في إطار تفكيك مختلف الجوانب الرئيسية المرتبطة بموضوع الدراسة، وتوضيح أبعادها وخصائصها، سواء من حيث الشكل أو المضمون، إلى جانب الوقوف عندها بالشرح والتحليل من حيث تحديد مشكلاتها وإيجاد البدائل والحلول المناسبة لها، وهو ما يتوافق مع مضمون هذا المقال. من جانبه، استدعت مقتضيات البحث كذلك توظيف منهج دراسة حالة، نظراً لكونه الأنسب في نطاق الدراسات النوعية التي تستهدف حصر الموضوع والإحاطة بكافة جوانبه، وجمع شتى أنواع البيانات والمعطيات والمعلومات بشأنه، فضلاً عن تقصي الحقائق عن الظاهرة محل الدراسة وفقاً لسياقها الزمني والتعمق فيها، مثلما هو عليه الحال بخصوص عرض وتبويب ورصد أفكار مالك بن نبي حول أطروحته الفكرية للحضارة وشروط النهضة، التي استغرقت منه جهداً وعمراً في تشخيصها ودراستها وتمحيصها وفهمها، وإدراك خفاياها ومعرفة أهم العوامل المؤثرة فيها.

للإجابة على الإشكالية والإحاطة بالأسئلة الفرعية المرتبطة بها، ارتأينا اعتماد التصميم التالي:

2. تمهيد

إن الحديث عن شخصية مالك بن نبي رحمه الله توحى لنا لا محال الحديث عن مفكر متعدد الأبعاد، متعدد النشاطات، متفتح العقل، متحرك المواقع، فهو من الرواد القلائل الذين عاجلوا مشكلة الحضارة المعاصرة من منظور إسلامي، مبرزا شروط قيامها، عناصرها وموانعها، وأسباب أفولها (موساوي، 2013/2012، صفحة 1). فهو يعتبر من أهم رموز الفكر المعاصر وأحد الأعلام القلائل، ومن الشخصيات المرموقة والمتبصرة التي تفتخر بهم الأمة العربية الإسلامية، والجزائر على وجه التحديد، نظرا لكونه موسوعة فكرية ومنبع إلهام لنماذج وتجارب ناجحة لبعض الدول المتطورة (بوزياني، 2019/2018، صفحة 10).

فعند تناولنا لسير وتراجم الشخصيات الأدبية والفكرية عادة ما تواجهنا مسألة الموضوعية والدقة العلمية بشأنها، ولقد إطردت العادة عند عموم الباحثين والدارسين لأي مشروع فكري أو تجربة فكرية، إبداعية أو ثقافية لشخصية مرموقة من القامات العلمية، أن يتم تخصيص بدايات البحث عن حياة المفكر أو العالم أو الكاتب بسرد تفاصيل حياته وعرض مشواره الفكري والثقافي الى جانب إنتاجه العلمي، فضلا عن ذكر مصنفاته وأبحاثه (لمشيشي، 2012، صفحة 17). لذا، فإن رسم صورة دقيقة عن ظروف حياة مالك بن نبي قد تكون على الأرجح مهمة صعبة المنال ومتعسرة نوعا ما، نظرا لكونها تنحصر أساسا في نطاق عدد محدود من المصادر والمراجع الموثوقة، ولعل أبرز مرجع يعتمد عليه في ذلك يتمثل خصيصا في سيرته الذاتية التي كتبها ونشرها تحت عنوان "مذكرات شاهد للقرن" التي جاءت في جزأين، وجرى تقديمها للقارئ في شكل صورة أدبية (بريون، 2010، صفحة 101).

حيث تعد شخصية مالك بن نبي من قلائل الشخصيات العلمية والفكرية النادرة التي تذكر ضمن عبقریات الفكر الإسلامي المعاصر، نظير إسهاماته المتميزة المقدمة في هذا المجال، لاسيما قيامه بمراجعة مجموعة من مفاهيمه التقليدية الموروثة (لمشيشي، 2012، صفحة 18) على غرار: القابلية للاستعمار، دورة الحضارة، العوالم الثلاثة (الأفكار، الأشخاص والأشياء) ...، هذا عدا عن كونه واحدا من أهم رواد النهضة الحضارية الإسلامية المعاصرة، ومن أبر المفكرين الجزائريين في التاريخ الحديث. ويرجع نسبه الى مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي، المشهور باسم مالك بن نبي، وكان يلقب بـ: "الصدیق" (بوزياني، 2019/2018، صفحة 11).

ولد المفكر الجزائري مالك بن نبي في مدينة قسنطينة (كانت تعتبر آنذاك من أعرق المدن الجزائرية من حيث الإشعاع العلمي والديني) في اليوم السادس من شهر ذي القعدة لعام ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر هجرية، الموافق ليوم 28 جانفي 1905 (العويسي، 2012، صفحة 51)، وكان يرى أن ولادته في تلك الفترة من الزمن أتاحت له الفرصة وأهله للشهادة على القرن، أي على حسب تعبيره: "في زمن كان يمكن فيه الاتصال بالماضي عن طريق آخر من بقي حيا من شهوده، والإطّلال على المستقبل عبر الأوائل من رواده، هكذا إذن قد استفدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد، حينما ولدت في تلك الفترة" (نبي، مذكرات شاهد للقرن، 1984، صفحة 15)، وهو السبب الرئيسي الذي يرجع الى تسمية مذكراته بمذكرات شاهد للقرن التي جاءت في جزأين؛ أولهما الطفل، وثانمها الطالب. عاش وترى في كنف عائلة فقيرة ماديا، وغنية من حيث الورع والمحافظة على التدين، ومحبة للعلم والمعرفة (البناء، 2013، صفحة 37). وتوفي مالك بن نبي رحمه الله في منزله بالجزائر العاصمة عن عمر ناهز 68 سنة بعد معاناته من انبثاث البروستاتا الذي سرى إليه من العمود الفقري (بوزياني، 2019/2018، صفحة 13)، ليلة الأربعاء 04 شوال 1393 هـ الموافق 31 أكتوبر 1973 على الساعة الحادية عشر وخمسة عشر دقيقة مساء (العويسي، 2012، صفحة 138، 139)، ودفنه أصدقاؤه وطلبته، وراثه كثيرون في مختلف البقاع العربية والإسلامية وبعض الدول الأوروبية، مخلفا ورائه إرثا ونتاجا فكريا وفيرا، دار محوره حول مشكلات الحضارة، الثقافة وشروط النهضة.

3. آرائه الفكرية-الحضارية.

طوال مسيرته الفكرية الحافلة بالعديد من الأحداث والمغامرات، لم يتوان مالك بن نبي في التطرق لمختلف القضايا المعاصرة وقتئذ، ومعالجة الكثير من المواضيع التي استرعت اهتمامه كما وكيفا، باعتباره انسان حامل لمشروع فكري وحضاري (بوخلخال، 2012، صفحة 31).

1.3: مقومات النهضة الحضارية

قبل الحديث عن مقومات وأسس النهضة الحضارية في فكر مالك بن نبي، لا بأس من أن نعرض أولا على مفهومه للحضارة والثقافة، كمدخل رئيسي لفهم رؤيته لتلك الشروط، فعلى مر السنين من عمر حياته -التي أكسبته ثقافة علمية وقدرة منهجية على تحليل تلك الأحداث تحليلا علميا، التي حاول من خلالها إظهار أن مشكلة العالم بصفة عامة والإسلامي المتخلف بصفة خاصة هي مشكلة حضارة-، فقد انصبت جميع أعماله ومجهوداته الفكرية في البحث عن حل لمشكلة الحضارة في العالم الإسلامي، ومحاولة

البحث عن أطر وبدائل منهجية مناسبة كمدخل لإعادة بعث حضارته من جديد (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 50، 51).

لقد بدأ مالك بن نبي ينظر ويهتم بالأحداث المحيطة به، انطلاقاً من هذه الزاوية، يرى مالك أنه لا تستطيع أية أمة أن تفهم مشاكلها وأن تقوم بحلها دون أن تكون لها نظرة شاملة للأحداث المتعمقة إلا من خلال محاولة فهمها والارتقاء إلى مستواها عن طريق إدراك حقيقة الأسباب المؤدية إلى قيام الحضارات وسقوطها، والمتمثلة أساساً حسبه في العامل الديني أو الفكرة الدينية.

من هنا، نجد أن الدارس والمتمعن في مختلف أعمال مالك بن نبي الفكرية، يجدها عموماً تعالج قضية جوهرية تدور حول محور واحد ألا وهو مشكلة الحضارة، انطلاقاً من كون أن الحضارة هي الإطار الذي يعالج جميع هذه الأجزاء التي يطلق عليها بتعبير آخر وفي مكان ما بالمشكلة السياسية، المشكلة الاقتصادية أو المشكلة الأخلاقية. وأن العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي قد أضع وقتاً طويلاً وجهد كبيراً، بسبب عدم التحليل المنهجي للمرض، الذي يتألم منه منذ قرون طويلة، فذهب يلتمس الحلول الجزئية، ونظر إلى القضية في صورتها التجزئية، فاختلقت الأطروحات؛ من الطرح السياسي إلى الطرح الاقتصادي إلى الطرح الأخلاقي. (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 45، 46).

يستشهد مالك بن نبي في هذا الصدد قائلاً: "إن مشكلة كل شعب في جوهرها هي مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم ويحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها...، وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية منذ أن هبط آدم إلى الأرض إلى آخر وريث له فيها" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 19، 20). وكما يقول بن نبي أيضاً في هذا السياق "فإن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، وأن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو تفكير في مشكلة الثقافة". (غانم، "الفكر التربوي عند مالك بن نبي بين ثنائية الحضارة والتربية"، صفحة 60).

لذا، نجد أن مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي قد أخذ عدة أبعاد وزوايا بحثية، وتعددت معها التعاريف والتفسيرات المقدمة لها في مختلف أعماله الأكاديمية ومحاولته البحثية، وهذا بحسب طبيعة الموضوع

نظرية الحضارة في فكر مالك بن نبي: دراسة في مقارنته لشروط النهضة

الفكرية والمعرفية، وكذا سياقاته الاجتماعية، ومنه، يمكننا تلخيصها فيما يلي (غانم، "الفكر التربوي عند مالك بن نبي بين ثنائية الحضارة والتربية"، صفحة 60):

الحضارة كمجموعة القيم وكوظيفة: فالحضارة من منظوره ما هي إلا: "نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر، وهي الدافع الذي يجعله يدخل التاريخ، ويبنى المجتمع نظامه وفقاً للأنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد كافة خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى" (BENNABI, 1990, p. 29)

الحضارة جوهر: يتلخص جوهر الحضارة في: "إن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، وأن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحققة، التي تأخذ في النهاية مهمتها التاريخية، تقوم بوظيفة الدم للكائن الحي. وتنقل أفكار الجمهور الشعبية، وأفكار القادة الفنية، وهذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة".

الحضارة من الناحية البيولوجية: نظراً لكون حضارة القرن العشرين لها مشتملاتها المادية والروحية، فلا يمكن لها أن تبني شيئاً وتترك الآخر، أي أنها لا يمكن أن تبني روحها، أفكارها، ثرواتها الذاتية وأذواقها، هذا الحشد من المعاني والأفكار التي لا تلمسها الأنامل، والتي لا توجد في الكتب أو في المؤسسات، لكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تبنيها فارغة دون روح وبغير هدف، فالحضارة من هذه الناحية هي "مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي (البيولوجي) حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري، تولد وتنمو روحياً، فعندما نشترى منتجاتها، فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها وروحها".

إن الحضارة انطلاقاً من كونها تعبر عن قمة وذروة النشاط الإنساني، باعتبارها حاصل تفاعل مجموعة الأسباب والعوامل، فهي حسب: "مجموعة الشروط والعوامل المادية والمعنوية التي تتيح لمجتمع معين، أن يقدم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطواره، من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، وأن يقدم له جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره (نبي)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 2002، صفحة 42)، فهذا التعريف ينطوي على جملة من الشروط التي تتشكل منها الحضارة بوجه عام، فمالك بن نبي يلحق الجوانب الروحية إلى العناصر المادية للحضارة (DILMI، 2013، صفحة 30).

أولى مالك بن نبي جل اهتماماته للمشكلات المزمنة التي تعاني منها الأمة العربية الإسلامية، ووجدتها تكاد تنحصر في برائين التخلف والتأخر عن باقي الأمم والحضارات، وراجع محاولات النهوض السابقة وتياراتها، فانتبه الى عمق التعقيدات التي تواجهها، ومدى تجذرها في مكوناتها الحضارية-التاريخية، وهو ما دفعه الى توظيف ألفاظ ومصطلحات مغايرة لسابقه (التقدم، الرقي...)، تجسدت أساسا في مفهوم "الحضارة"، الذي استخدمه عن عمد وتدبر، وأدرجه في مختلف مؤلفاته العلمية، مما يعني أن ظاهرة الحضارة هي الفكرة المركزية التي تتمحور حولها جل أفكاره (الثقافية، الاجتماعية، التربوية، السياسية، الاقتصادية...)، وكانت بمثابة المدخل المنهجي الذي اتخذه مالك بن نبي لدراسة واقع المجتمع والأمة، مؤكدا في هذا السياق "أن مشكلة أي شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته" (بريون، 2010، صفحة 199).

ولقد حرص على تأكيد هذه الحقيقة من خلال قوله: "أعتقد أن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن (قبل وفاته)، هي مشكلة الحضارة، وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها، وإيجاد التناقض بين النجاح المادي والتخلف المعنوي، أعني تخلق القيم واهمالها" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 51).

من جانبه، فقد قاده هذا الاستنتاج المنطقي الى تتبع ورصد عوامل صعود الحضارات الإنسانية وأفولها مستفيدا من أفكار سابقه (ابن خلدون، كسرلنج، شبنجلر، جيزو، وولتر شوبرت...)، مع تركيزه على الحضارة الإسلامية بوجه عام، وسقوطها على وجه التحديد، وقد توصل الى حقيقة مفادها أن أفول تلك الحضارة دفع المسلمين للارتقاء في حضن الاستعمار الأجنبي خلال القرن التاسع عشر، "إنسان أوروبا قام-دوفا قصد- بدور الديناميت الذي نسف عالم ما بعد الموحدين الموسوم بالصمت والأحلام والخمول، وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين بهزة انتفض بعدها مستيقظا، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يده" (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 1986، صفحة 48).

ومما لا شك فيه، أن ثمة ترابط وثيق بين كل من الحضارة والثقافة، حيث أن لكل حضارة ثقافتها الخاصة، وهو ما ذهب إليه بن نبي من خلال قوله: "إننا لا يمكن أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، لأن الثقافة هي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وهي الوسط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية التي رسمها المجتمع بنفسه، وهكذا يترتب التاريخ" (الخطيب، 1993، صفحة 26).

2.3 الثقافة:

إن الثقافة (كما عرفها الأنثروبولوجي الإنجليزي تايلور (1832-1917) في كتابه الثقافة البدائية الصادر في سنة 1871 على أنها: "ذلك الكل المركب والمتكامل الذي يشتمل على المعرفة، العقائد، الفن، القانون، العادات والأخلاق، وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع".) (ROCHER) تحتل هي الأخرى أهمية قصوى في فكر مالك بن نبي، نظراً لمهمة الثقافة التي تؤديها في نطاق إنجاز حضارة ما، وهو ما يفترض وجود علاقة وثيقة بينهما، تبرز أهميتها بالنسبة له انطلاقاً من علاقاتها الوظيفية بالحضارة، فهي تهيئ لقيامها وتحافظ على استمراريتها، من خلال تحديدها من ناحيتين (العويسي، 2012، صفحة 305). الأولى: تقويض البناء السالف لها، الذي تكمن في طياته جرائم التخلف والركود.

الثانية: إعادة البناء والتشييد، عن طريق إعادة تبني برامج تربوية جديدة، تحدد بموجبها أسلوب حياة المجتمع، وسلوكيات أفرادها، بما يتلاءم ويتفق وإنجاز الحضارة.

إن مسألة الثقافة عند مالك بن نبي يجب أن تُطرح وتُفهم فكرياً، وفقاً للنظام الهرمي للحضارة، وأن الحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته (نبي)، مشكلات الحضارة: من أجل التغيير، (2005، صفحة 58). من جانبه، فإن للثقافة جوانب متعددة، وتعرف بأنها علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة في المجتمع بسلوك الفرد، فتحليل مالك لمشكلة الثقافة من العناصر السابقة الذكر تتبع تحديداً من رؤيته إلى المشكلة الجوهرية التي تكمن أساساً في مشكلة الحضارة، التي هي مشكلة نفسية وزمنية، ومشكلة الثقافة هي في حقيقتها لب مشكلة الحضارة، وبالتالي، فلا بد من تفسيرها من مراعاة أمرين إثنين (العويسي، 2012، صفحة 321):

أولاً: أساس الحضارة: بمعنى المبدأ الذي ينطلق على ضوءه مجتمع ما في إقامة حضارته.

ثانياً: المرحلة التاريخية للمجتمع التي تمر بها حضارته (المراحل الثلاث للحضارة).

يقول مالك بن نبي: "وانما تختار الحضارة إذا ما فارق دعاها سبيلهم التي يسلكونها لأداء نشاطهم المشترك، واتبعوا سبلاً وطرائق متخالفة، تجعل النشاط مستحيلاً، فسبل تنسل إلى حضيرة التصوف، وأخرى تنحدر إلى عالم العجائب الذي هب من ربح ألف ليلة وليلة، وثالثة تختار طريق الرقص والغناء بدعوى أنها تحضر" (نبي، ميلاد مجتمع: شبكات العلاقات الاجتماعية، 1986، صفحة 98) (بن نبي، ميلاد مجتمع،

1986، ص.98). فالثقافة حسبه هي " المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية... " (نبي، ميلاد مجتمع: شبكات العلاقات الاجتماعية، 1986، صفحة 32). كما تضمن مؤلفه "شروط النهضة" تعريفا مهما للثقافة جاء فيه: "الثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها: مجموعة من الصفات الأخلاقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كإسماول في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل الفرد فيه طباعه وشخصيته، فهي إذن المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي، 2000، صفحة 83)، فهذا التعريف حسب مالك بن نبي يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان من ناحية، وفلسفة الجماعة من ناحية أخرى، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع الأخذ بالاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدته عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي، 2000، صفحة 83).

فمشكلة الثقافة بالنسبة للعالم الإسلامي من منظور بن نبي لا تنحصر أساسا في التعريف، لأن مسألة وضع تعريف حربي وحدها لا تحل المشكلة، ولا بد لتعريفها من إدراكها من جميع جوانبها، لكي يتسنى فهمها باعتبارها واقعا اجتماعيا، يتحقق من خلال إدراكه التخطيطي لتصحيحه، حيث طالب مالك بتهيئة المحيط المناسب لتطبيق ما نتصور من حلول لمشكلات العالم الإسلامي، "وتلكم هي مشكلة الشروط الأولية، التي تنور أمامنا لا بالنسبة إلى الحلول الجاهزة التي نقبسها من الخارج، بل بالنسبة إلى جميع الحلول التي نتصورها لحل ما يواجه مجتمعنا من مشكلات في مرحلته التاريخية الراهنة، وقد يدهش بعض الناس أحيانا في أوساطنا المفكرة، حيث الفكرة الإصلاحية دائما موضوع اهتمام، يدهشون من أن الحلول التي أكدت صلاحيتها من قبل في المجتمع الإسلامي الأول لم تعد لها اليوم فعاليتها" (نبي، ميلاد مجتمع: شبكات العلاقات الاجتماعية، 1986، صفحة 104).

ولقد شخص مالك بن نبي الحالة التي آل إليها العالم الإسلامي من تخلف وتردي الأوضاع فيه، مشبها إياه بحالة المريض الذي يطلب دواء من الصيدلية وهو يجهل داءه أصلا، حيث يستشهد قائلا: "هذا شأن العالم الإسلامي، إنه دخل إلى صيدلية الحضارة الغربية طالبا الشفاء، ولكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟ وبديهي أننا لا نعرف شيئا عن مدة العلاج كهذا، ولكن الحالة التي تطرد هكذا تحت أنظارنا منذ نصف قرن، لها دلالة اجتماعية يجب أن تكون موضع تأمل وتحليل" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري:

أتمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 41). فمن وجهة نظره، فإن السبيل لحل مشكلة النهضة الإسلامية، وطريقة إقامة العلاقة مع الحضارة الغربية، فالمرجح يكمن في انجاز الحضارة على أساس (المركب- الإسلام)، وإقامة العلاقة مع الغرب أو الشرق على أساس التفاعل بين الحضارات، لا من منطلق الخضوع، العبودية والتبعية (العويسي، 2012، صفحة 319، 320).

3.3 مركب الحضارة عند مالك بن نبي (شروط النهضة)

لعل ما يميز مالك بن نبي في نظريته حول شروط نهضة العالم الإسلامي في إطار تحقيق الحضارة، أنها جاءت جديدة وابداعية، ولم تكن وليدة الاقتباس من باقي النظريات السابقة، سواء في التاريخ القديم أو الحديث، حيث استرعت اهتمام البعض وأثارت إشكالية لدى البعض الآخر، بينما اعتبرها طرف ثالث بأنها ناقصة وغير متكاملة، لكونها أقرب الى المدينة من الحضارة (ميلاد، 1998، صفحة 81). إجمالاً، وبدون الخوض في تفاصيل ذلك، لا بأس من الوقوف عند عناصر الحضارة، حيث أن عناصر الحضارة عند مالك بن نبي تتكون من ثلاثة أركان رئيسية، وقد صاغها على شكل معادلة رياضية:

نتاج حضاري = إنسان + تراب + وقت، قائلاً في هذا الصدد: "إن مشكلة الحضارة تنحل الى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب ومشكلة الوقت، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أتمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 45). فالأزمة في جوهرها -وفقاً لما يؤكد بن نبي- "أزمة حضارية، ولن تتمكن من القدرة على حلها إذا إمسكنا بقوانينها، ونظرنا إليها بعين التحليل، وبمجتنا عن سنة الله فيها" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أتمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 52).

4.3 الدورة الحضارية

إن نظرية الدورة الحضارية تشكل الفلك أو المدخل الذي يدور حوله منظور مالك بن نبي للحضارة الغربية، فالدورة الحضارية -باعتبارها من أهم أدواته التحليلية في دراسة وتحليل الحضارة-، تركز على المبدأ الذي استخلصه بن نبي والقاضي بأن الحضارة يحكمها وينظمها قانون الدورة أو الهجرة، والذي يعني في حقيقته استمرار الحضارة وتنقلها من مكان نفذت فيه عناصرها أو شروطها الأولية، الى مكان آخر توفرت فيه هذه الشروط، لتنتقل منها في دورة جديدة تواصل به سيرها الى ينتهي التكليف وتنقضي سنة الحضارة وال عمران البشري. وبالتالي، فإن سنة التداول الحضاري مدخل مهم لاستيعاب وفهم منطلقات بن نبي في إطار رؤيته للحضارة الغربية ومعالجته لنظرية البناء الحضاري. فظاهرة دورة الحضارة توصل إليها انطلاقاً من

القرآن وفقاً لما تضمنته الآية الكريمة {وتلك الأيام نداؤها بين الناس} (آل عمران: 140)، ليني عليها نظريته حول الدورة الحضارية أو قانون التداول الحضاري الذي اكتشفه ابن خلدون وطوره بعده مالك بن نبي (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 54، 55).

وعلى ضوء دراسته لانحياز العالم الإسلامي، يرى بن نبي أن للتاريخ دورة وتسلسلا حسب ملاحظتنا الاجتماعية، "فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها، ليسلمها إلى نومها العميق، فإذا ما أخذنا بهذه الملاحظة الاجتماعية بعين الاعتبار، تحتم علينا تحقيق إدراك واعي بمكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا وما يعتورنا من عوامل الانحطاط، وما نطوي عليه من أسباب التقدم، فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 59).

5.3 متطلبات تحقيق النهضة

لقد عاش مالك بن نبي حاملاً هموم ومشكلات المجتمعات العربية المسلمة من طنجة إلى جاكارتا، مركزاً جل اهتماماته بتحليل الأوضاع المأسوية التي لحقت بهذه الشعوب وجعلتها تحت وطأة الاستعمار، وخلصها في مفهوم "القابلية للاستعمار" الذي يتضمن مجموع الاستعدادات النفسية التي لزمته هذه المجتمعات بعد عصر الموحدين (الحسن، 2021، صفحة 16)، خاصة وأنه حرص على وجوب انتباه المسلمين لحقيقة الاستعمار الذي يمثل بالنسبة إليه "مجرد نبتة صغيرة حقيرة، ما كان لها أن تنبت وتؤتي أكلها لو لم تهيأ لها التربة الخصبة في عقولنا ونفوسنا" (نبي، مجالس دمشق، 2005، صفحة 54)، المتجسدة في إطار فكرته حول القابلية للاستعمار. وبين أن الاستعمار ليس ظاهرة خارجية (كما يعتقد الكثير وكما هو شائع عند عموم الناس) بقدر ما هو ظاهرة داخلية، تدعمها ظروف وعوامل اجتماعية (التخلف، الجهل، الفقر، المرض، الانحطاط، الأوثان، انتكاسات) تعمل على نخر المجتمع وتآكله، مطلقاً عليها اسم القابلية للاستعمار (البناء، 2013، صفحة 42).

فضلاً على أن الاستعداد النفسي من لدن الشعوب المستعمرة في خضوعها للاستعمار يعتبر عاملاً قوياً لاستدامة بقائه، مستشهداً بقول ماثور لأحد الرواد المصلحين حين خاطب قائلاً: "أخرجوا الاستعمار من نفوسكم يخرج من أرضكم" (موساوي، 2013/2012، صفحة 118). حيث دعا بن نبي إلى ضرورة تلخيص الشعوب العربية الإسلامية من فكرة القابلية للاستعمار بواسطة تنقية الذات من مركب النقص الموجود بداخلها (DILMI، 2013، صفحة 38). لقد انحصرت معظم آرائه وأفكاره في مشكلة التخلف

نظرية الحضارة في فكر مالك بن نبي: دراسة في مقارنته لشروط النهضة

الحضاري، وهو ما دفعه الى تركيز مجهوداته محاولا التنظير لكيفيات الخروج من هذه الدوامة التي ابتلي بها العالم الإسلامي عموما، حيث تناولت معظم مؤلفاته مراكز وشروط النهضة وتحقيق التحول الحضاري في هذه المجتمعات. حيث يقول مالك بن نبي عن نفسه مستشهدا في هذا الشأن: "أعتقد أن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن هي مشكلة الحضارة، وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها، وإزالة التناقض بين النجاح المادي والتخلف المعنوي، أعني تخلف القيم وإهمالها، ولقد شعرت منذ فترة طويلة وعلى وجه التحديد منذ صولي الى أوروبا لتلقي العالم عام 1930، أن المجتمعات المعاصرة بالغة التعقيد ومتعددة الأنواع" (ميلاد، 1998، صفحة 73).

حيث يقوّم مالك بن نبي واقع النهضة في ضوء نظريته عن الحضارة، من حيث تطابقها أو اختلالها مع قانون الحضارة، فهو يحدد معنى النهضة بشكل عام: "إذا راجعنا تاريخ القرن التاسع عشر، وجدنا ان النهضة كانت ظاهرة عامة في مختلف البلاد المستعمرة، وأن أسبابها تتصل بالظروف النفسية، الاقتصادية والسياسية الجديدة التي كونها المستعمر في تلك البلاد، فالنهضة كانت الفعل الذي ردت به الشعوب المستعمرة في تلك الظروف"، ويجري مالك بن نبي على ضوء ذلك دراسة مقارنة عن التجارب النهضوية في عدة دول (العالم الإسلامي، الصين، الهند، اليابان...)، ومدى اختلاف ردة الفعل بالنسبة لشعوب تلك الدول، قبل أن يتوصل الى خلاصة حول أسباب نجاح بعض التجارب النهضوية وفشل أخرى (العويسي، 2012، صفحة 477، 478).

في هذا الجانب، انصب جهد مالك بن نبي حول مشكلات العالم الإسلامي، محاولا توجيه فكره نحو تحقيق نهضته ووثبته الحضارية، من خلال استكشاف مواطن الخلل والضعف وتقويمها، وأمام تحديات هذا الواقع غير المحتوم الذي يحيط بالعالم الإسلامي، وجب التفكير جليا لإيجاد مخرج له، يقول مالك بن نبي: "مشكلات التخلف تم الى حد بعيد البلاد الإسلامية، سواء في الصورة السياسية أم في الصورة الاقتصادية، ويبدو الأمر أكثر أهمية في الصورة الثانية، لأن هذه البلاد تواجه الأزمة الاقتصادية، لا من الناحية المادية التي تسد الحاجات الضرورية فحسب، ولكن من الناحية المعنوية أيضا لأنها ترتبط روحا وفكرا بالعصر الذي يجعل القيم الاقتصادية في الدرجة الأولى من سلم القيم، والبلاد الإسلامية تواجه مشكلة البناء الاقتصادي، خاصة تلك التي تقطن شعوبها محور طانجا جاكرتا عامة، والشعوب الإسلامية خاصة، ولا يمكن حل هذه المشكلة إلا على أساس التفكير الاجتماعي الجاد، لأنها مشكلة اجتماعية في صميمها" (نبي، تأملات، 1979، صفحة 52، 53).

لذا، يرى بن نبي أنه "عندما يصل هذا التاريخ الى مثل هذا المنعطف من دورة الحضارة، فإن يصل الى المنطقة التي تتصل فيها نهاية عهد ببداية عهد آخر، ويتجاوز فيها ماضي الأمة المؤلم، مع مستقبلها المشرق البسام" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: نموذج مالك بن نبي، 2000، صفحة 79).

6.3 الفكرة الدينية

أولى مالك بن نبي اهتماما خاصا بالعامل الديني ودوره المركزي في بناء الحضارة، فالحضارة من وجهة نظره لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، فينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا، وأهوي على الأقل (الحضارة) تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدر الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة الى حيث يمتد نظره الى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقرته وتتفاعل معها (غانم، "الفكر التربوي عند مالك بن نبي بين ثنائية الحضارة والتربية"، صفحة 65)، فالإسلام من وجهة نظره ينبغي أن يجسد حقيقة رائدة، أصلية وفعالة (HAMRI، 2018، صفحة 166).

إضافة الى هذا، نجد تركيزه الشديد على الفكرة الروحية عن طريق إيلائه أهمية بالغة للجوانب التعليمية والتربوية في حياة الفرد المسلم والمجتمع ككل، المسؤولة حسبه عن تكوين المعاني الربانية في أنفسنا، حيث يقول بن نبي في هذا الصدد: "نفسية الفرد في المجتمعات التاريخية على الأقل مفعمة بالزرعة الدينية تلك التي تعد جزء من طبيعته، وهو ما جعل علم الاجتماع يقول في تعريف الإنسان بأنه حيوان ديني، وهو بذلك يحدد جانبا من الأساس النفسي العام في أفراد النوع وكل فرد يبيّن شخصيته على هذا الأساس" (حميدي، 2005/2004، صفحة 40).

وبالرجوع الى الصبغة المشار إليها آنفا حول النتاج الحضاري، فإنها تثير عند مالك بن نبي اعتراضا هاما في التطبيق، حيث يقول هنا: "إذا كانت الحضارة في مجموعها هي نتاج العناصر الثلاث السابقة (الإنسان، تراب والوقت)، فلماذا لا يوجد هذا النتاج تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاث؟" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: نموذج مالك بن نبي، 2000، صفحة 45)، وللإجابة على هذا التساؤل، يضرب لنا مالك بن نبي مثلا عن التحليل الكيميائي وهو الماء، مستدلا بما يلي: "...وإنه لعجب يزيله اقتباسنا للتحليل الكيميائي، فالماء في الحقيقة نتاج للهيدروجين والأكسجين، وبرغم هذا، فهما لا يكونانه تلقائيا، فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عملية تكون

الماء، وبالمثل، لنا الحق في أن نقول إن هناك ما يطلق عليه "مركب الحضارة"، أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة ببعضها البعض، إن هذا المركب موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ، فإذا ما اتضح صدق هذه الاعتبارات، عن التفاعل الكيميائي الحيوي، وعن ديناميكية الواقع الاجتماعي، كان لنا أن نخطط بطريقة ما، مجال تطوره كإطار مادي نعرف قانونه، وفي الوقت نفسه، يسمح لنا ذلك بالقضاء على بعض الأخطاء التي يشهها ما يطلق عليه أدب الكفاح في العالم الإسلامي، حيث يزكي ضمنا الاتجاه نحو التكديس" (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 45، 46).

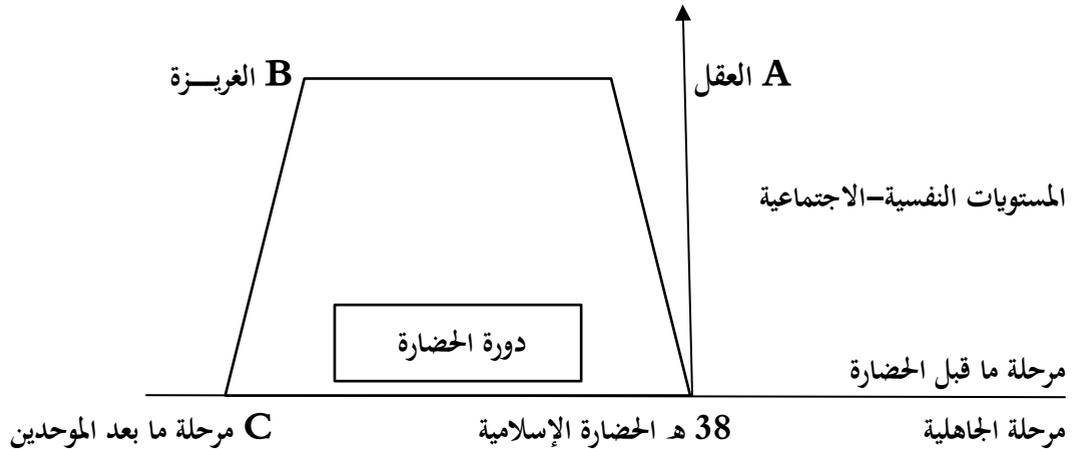
فمن منظور بن نبي " أن العالمية الإسلامية شرطها حاليا مقاومة القابلية للاستعمار، وتصحيح المسار الحضاري للإنسانية، منطلقة أن ندرك أن قضية العالم الإسلامي هي قضية بناء حضارة لا تكديس منتجاتها، لأن البناء وحده الذي يأتي بالحضارة لا التكديس، فكل القيم النفسية ليست إلا ترجمة للعلاقة العضوية بين الفكرة الدينية والفرد، وأن الحضارة هي نتاج حركة أبناء المجتمع بتوازن معنوي-مادي إلى أهداف محددة تحقق مسار دور هذا المجتمع في تاريخ البشرية" (لمشيبي، 2012، صفحة 40). إن الإسلام من وجهة نظره ينبغي أن يكون فكرة معاشة من الواقع كحقيقة عملية رائدة أصلية، وفعالة في خدمة الأفراد، المجتمعات والحضارة الإنسانية (HAMRI، 2018، صفحة 16)، وأن الفكرة الدينية وفقا لتصوره هي الفكرة المركبة، التي تعمل على التفاعل بين العناصر الأساسية (الشروط الأولية) للحضارة (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 87).

فالعامل المؤثر والمسؤول عن مزج تلك العناصر في إطار مركب الحضارة الذي تكلم عنه مالك هو **الفكرة الدينية**، التي سارت مع تكوين الحضارة عبر التاريخ، لتلعب بذلك دورا محوريا في بناء الحضارات، فإذا أردنا أن نبحث عن أية حضارة فيجب أن نبحث عن أصلها الديني من وجهة نظر مالك بن نبي. فايدن بالنسبة إليه هو ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 95). أما بخصوص دورة الحضارة، يرى مالك أن الحضارات عموما تقوم بثلاث مراحل متعاقبة، وهذا انطلاقا من قانون الحضارة الذي يبنى في جوهره على أثر الفكرة الدينية (التي ليست حسب مقتصره على الدين الذي مصدره الوحي) ودورها في تكوين أية حضارة (بوزياني، 2019/2018، الصفحات 19-21):

أولاً: مرحلة الروح (الميلاد): في هذه المرحلة يعيش الإنسان وفقاً لمقتضيات الفطرة والغريزة إلى حين بزوغ أفكار دينية وعقائد روحانية، التي تقوم تبعاً لعملية شرطية، عن طريق محاولتها ضبط الغرائز في أوساط المجتمع، وتحقيق عامل الانسجام بين تلك الغرائز والعقيدة الدينية الجديدة على ضوء علاقتها الوظيفية، بمعنى آخر: تبدأ هذه المرحلة عندما يبدأ الاتصال بين السماء والأرض (الوحي)، ومن سماتها سيطرة العامل الروحي على الغرائز.

ثانياً مرحلة العقل (الأوج): أهم سماتها سيطرة العقل الذي يتماشى مع الروح، فضلاً عن انتشار الفكرة الدينية على نطاق واسع داخل المجتمع مما يسمح له بالتطور وتقوية علاقاته الداخلية، فالحضارة من منظور بن نبي تظهر في الأمة في شكل وحي من السماء يعمل على توجيه الناس نحو معبود غيبي، وتزدهر الحضارة عندما يسيطر فيها عقل الإنسان على غرائزه ويحد من أهوائه، لتظهر بعد ذلك عبقرية الإنسان التي تتجلى في مجموع الفنون والعلوم وشتى مظاهر التطور الحضاري، وبالتالي، امتداد الحضارة وانتشارها على أوسع مدى، لكن دون اغفال في هذا الجانب عنصري البذخ والترف المسؤولان عن هدم الحضارة.

ثالثاً: مرحلة الغريزة (الأفول): ولعل السبب الرئيسي حسه في سقوط الحضارة يكمن تحديداً في غياب العامل الديني، في مقابل طغيان الغرائز وسيطرتها على عقل الإنسان فيفسد المجتمع بفقدان الفكرة الدينية لوظيفتها. ويؤكد مالك بن نبي على مركزية هذه الفكرة من خلال الرسم البياني التالي، الذي يوضح فيه دورة الحضارة الإسلامية:



المصدر: Malek BENNABI, **Le problème des idées dans le monde musulmans** (Alger : El-Bay'Yinate édition, 1990), p.31.

خاصة إذا علمنا في هذا السياق، بأن مالك بن نبي أكد على أن الحضارة في عصر الدولة الموحدية هي أقوى الحضارات في التاريخ الإسلامي، وأكثرها ازدهارا، سواء من الجانب المادي أو الفكري، وهي علامة فارقة في التاريخ الإسلاميين لدرجة أن لحظة سقوطها بعد هزيمة الناصر لدين الله الموحي في موقعة "حصن العقاب" في الأندلس، اعتبره نذيرا بنهاية قوة المسلمين، "فهذه اللحظة حسبه هي نقطة انكسار في منحى التطور التاريخي... الذي كان في حقيقته سقوط حضارة لفظت آخر أنفاسها، ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان ما بعد الموحيين" (نبي، وجهة العالم الإسلامي، 1986، صفحة 36).

نخلص الى أن تصور مالك بن نبي للفكرة الدينية قائم أساسا على أن الدين هو سنة الله الكونية التي فطر الناس عليها، ويعود له الفضل وحده في كونه المركب الحقيقي للقيم الحضارية، فهو الذي يعطي شرارة الانطلاق حتى تدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 106). إن حل مشكلة الإنسان في إطار تحقيق شروط النهضة الحضارية يكمن في ثلاثة أشياء حسبما تصورهما مالك بن نبي: 1- توجيه الثقافة، 2- توجيه العمل و3- توجيه رأس المال (الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أمودج مالك بن نبي، 2000، صفحة 106)، وهي مركبات متداخلة ومتشابكة وغير مفصولة عن بعضها تتفاعل معا لتغيير وضع الإنسان المسلم.

4. مآثر وانجازات المفكر مالك بن نبي

لقد كثرت النعوت والألقاب التي أطلقت في حق مالك بن نبي، بين رجل مصالح، فيلسوف، عالم اجتماع، مفكر سياسي، اقتصادي، طبيب الحضارة، فيلسوف الحضارة، ضمير العالم الإسلامي، فقيه الحضارة... وغيرها من الأوصاف الدالة على عبقرية هذا الشخص ونبوغه وتبحره في العلوم، وتميزه عن المفكرين الآخرين (باي، 2016/2015، صفحة 68، 69) (فقد كان منظرا ومصالحا ومفكرا استنادا الى منحاه الفكري ومواقفه على أكثر من صعيد، فهو إسلام مسلم بكل ما تحمل الكلمة من معاني روحية وفكرية ووجدانية، وكانت شخصيته الإسلامية مترجمة في سلوكاته، أقواله وأفعاله (بشير، 2004).

كما يروي عنه طلبته ومن عاشروه في تلك الفترة أن للرجل عينا لاقطة شديدة الملاحظة، تكشف عن أدق الجزئيات والتفاصيل، وتربط الفروع بالأصول، وتتخذ من الجزئي دليلا عن القاعدة الكلية، وهي ميزة لا يؤتيها إلا قلة قليلة من فئة الباحثين المهتمين والجادين بقضايا ومشاكل أمتهم، لتعكس في نهاية المطاف جوانب مشرقة ومشرقة في فكر وعبقرية الراحل، وقدرته في التحليل والغوص عميقا في تحديد المشكلات المزمنة المرتبطة بواقع أمته. إنه لا يكتف من الظواهرات بظواهرها، وإنما يتعداه للتنقيب في أصولها

وجذورها الممتدة، وكأنه يتغني سبيل عالم الآثار الذي يجد نفسه ينتقل عبر حفريات ممنهجة، تقض به الى نتائج لم تكن في الحسبان (بوخلخال، 2012، صفحة 100).

هناك من اعتبر أن مالك بن نبي يشكل مدرسة في فكره وحده، لأنه قدم مشروعاً حضارياً نهضوياً ضمن إطار ونموذج معرفي تحكمه مجموعة من المفاهيم النظرية المتناسكة ووظيفتها التفسيرية (باي، 2016/2015، صفحة 100). كما يعتبر في نظر كثيرين أنه "ابن خلدون ثاني بامتياز"، وليس المقصود هنا أنه صورة مستنسخة عن ابن خلدون بقدر ما أنه ساهم في احياء المدرسة الخلدونية بكفة أبعادها وجوانبها (رؤية، منظورا، موضوعا ومنهاجا)، رؤية تهتم بال عمران البشري في ضوء القرآن لتتجلى سنن قيامه وأفوله، ومنظورا يهدف الى معالجة القضايا في أفقها الحضاري الكوني، وموضوعا ينم عن دينامية المجتمع في التاريخ، ومكوناته وعلاقاته الاجتماعية، والروابط المتصلة بين الدين، القيم والإنسان، وكيفيات تأليف ذلك في إطار انجاز عمل تاريخي مستحضرا سنن الله في ذلك، ومنهاجا من خلال تعميق عناصر التحليل المركب، والعمل على استحضار وكشف سنن الخالق في حركة التاريخ والاجتماع، وتحويل الفعل الحضاري الى فعل واع، قصدي، منظم وممنهج بعيدا عن ضروب العشوائية، فهو بذلك إذن لا محالة ممنهج التفكير السني (الحسن، 2021، صفحة 20).

من جانبه، تكمن أهمية الأفكار التي نادى بها مالك بن نبي في كونها قبالة للتطبيق في أي عصر وزمان، بالرغم من مرور عدة عقود على ظهورها، وهو ما ينم عن بعد نظره ورؤيته المتبصرة لقضايا ومشكلات عصره، خاصة فكرته حول الاستعمار، أين نبه المسلمين فيها إلا أن الاستقلال لن يكون حلا ناجعا ما لم تتم تصفية ما أسماه القابلية للاستعمار من النفوس، وقد دفعه ذلك الى دراسة أوضاع وطنه الجزائر وكذا البلاد الإسلامية، مستخدما في ذلك النظرية الموضوعية والمنهجية العلمية وأدوات التحليل النقدي لتشخيص حالة الركود والجمود التي لحقت بالعالم الإسلامي، ومن ثم، العمل على إيجاد بدائل فعالة للخروج من دائرة التخلف الحضاري (بريون، 2010، صفحة 103).

نسجل كذلك أن مالك بن نبي ولدرجة تمكنه الفائق من اللغة الفرنسية واتقانه البالغ لها - كما لو كان فرنسي اللسان بالطبيعة-، فقد استحدث مصطلحا جديدا منحوتا (Intellectomomann) سرعان ما تبنته الأكاديمية الفرنسية في معاجمها وقواميسها، الذي يدل ويوحى في معناه بمدعي الفكرة والثقافة (بريون، 2010، صفحة 103)، وهو وصف يطلقه بن نبي على رجل القلة أو (رجل النصف = نصف مثقف) الذي حَرَف معنى الثقافة مدعيا العلم والمعرفة. فهو لا يرى في الثقافة إلا المظهر التافه، فهي عنده

نظرية الحضارة في فكر مالك بن نبي: دراسة في مقارنته لشروط النهضة

طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد فعلم يجلب رزقا. والتعامل بحسبه صفة مرضية - مرض مستعصي -
وجهل خطير يلبسه أصحابه ثوب العلم.

من هذا المنطلق، يقول مالك بن نبي: "إن افساد النهضات يكون بإنتاج إنسان النصف، وإنسان النصف هو الإنسان الشديد الإلحاح بطلب حقوقه ولكنه لا يقوم بالحد الأدنى من واجباته أو من ثقافة المتاح المتوفرة بين يديه يذهب للمدرسة ليمضي الساعات فقط وهمه الأكبر الحصول على تلخيص أستاذه أو المادة المطلوبة للامتحان دون أن يكون هدفه التعلم! يذهب للعمل ويقضي ساعاته بأي طريقة المهم بالنهاية أن ينقضي الوقت ويعود لحياته ويحصل على معاشه! إنسان النصف لا يدرس كطالب ولا يعمل كموظف ولا يبدع في معمل ولا يبتكر في متجر ولا ينجز في مشروع! هو باستمرار إنسان النصف يطلب بحقوقه ولا يقوم بواجباته!" (من هو إنسان النصف؟).

لقد جعل مالك من الإنسان حجر الزاوية في فكره ومشروعه الحضاري، ودعا الى ضرورة بنائه قبل كل شيء، "فبناء الإنسان يسبق بناء الآلة، حتى لا نضع العربة قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول الى الهدف الحقيقي المنشود"، وهذا ما يجعله من دعاة الإنسانية، فالإنسانية كل الإنسانية مدينة له، بحاجة إليه كلما تداعت القيم، فالاستثمار في الإنسان من أهم مقومات الحضارة، بل هو مفتاح الحضارة، وكان همه الوحيد تحقيق النهضة الشاملة، التي تعم، الجميع، لذا، فقد كان متفتحا على غيره، عالمي التصور في اطار معالجته الحضارة كغاية إنسانية نبيلة تشترك فيها البشرية جمعاء، وتطالب بها (بيدي، 2019، صفحة 21).

ويرجع له الفضل كذلك في محاولته التنظير لمشروع جامعة إسلامية، أو كما أطلق عليها بنفسه "بفكرة الأفرو آسيوية" أو "فكرة كومونوالث إسلامي" التي ضمنَ فيها مختلف أرائه ورؤاه تجاه العالم بصفة عامة والعالم العربي الإسلامي بصفة خاصة، أين سعى مالك بن نبي من خلالها لأن يرسم اطارا لمشروع يمنح العالم الإسلامي فيه موقعا ضمن خريطة العالم المعاصر (كان يرمي من ورائها الى تخطيط وحدة بحث جغرافية سياسية)، يستمد رسالته من وسطية عقيدته كشاهد على الناس جميعا، والمجتمع المتخلف عن الحضارة وخطى الغد لا تقبل له شهادة أبدا، وهو كالفرد المنحرف المتخلف عن مسيرة السلوك الاجتماعي تسقط شهادته في ميزان العدالة (نبي، فكرة كومونويلث إسلامي، 2000، صفحة 09). فهو إذن يرى أن العالم الإسلامي ليس عالما واحدا فقط، فهو مجموعة عوالم إسلامية، منارة الإشعاع فيها هي مكة المكرمة، التي هي نقطة مركزية (نبي، فكرة كومونويلث إسلامي، 2000، صفحة 45، 46):

1- العالم الإسلامي العربي. 2- العالم الإسلامي الأسود الإفريقي. 3- العالم الإسلامي الصيني-المنغولي.

4- العالم الإسلامي الماليزي. 5- العالم الإسلامي الأوروبي. 6- العالم الإسلامي الإيراني.

على هذا النحو، يمكن أن نخلص بأن بن نبي رحمه الله، توصل عبر سلسلة أطروحاته ومقارباته الى أن يحقق الفهم الشمولي لمشكلة العالم الإسلامي، بأن يجعل مشروعه صرحاً فكرياً يستوحي من ثلاثية الإسلام والواقع ومناهج العلوم الحديثة، سعياً منه للتطرق لأغلب الجوانب الحضارية التي يطالها التخلف. فكان مشروعه إذن حقيقة مؤكدة وثابتة للبنية الأساسية في صناعة المشروع الحضاري العام للعالم الإسلامي، فهو امتداد تاريخي على مستوى الأفكار في الحاضر ونحو المستقبل (لمشيشي، 2012، صفحة 38، 39).

هكذا إذن، يمكننا أن نخلص للقول، بأن مالك بن نبي تمكن بنجاح من الجمع بين فهم مقاصد الإسلام الحضارية والوعي بالواقع من جهة، وبين استيعاب فائق لسنن التغيير والأخذ بمقومات النهوض من جهة أخرى، مما أوصله تحليله في نهاية المطاف الى إدراك حقيقة المعادلات (أو الثنائيات الفكرية) التي تمثل روافع للنهوض الحضاري، إن تم الالتزام بها، أو خوفاض نحو الانحطاط والتخلف، في حالة الإساءة الى فهمها والتعامل معها، لذلك، فإنه في حالة توازنها تتوقف عليها سلامة قاعدة لبنات النهوض والإقلاع، ويصنع اختلالها دركات الانحطاط والانكسار، حيث تنتصب كل معادلة منها للتأسيس كدرجة في سلم الرقي الحضاري، إن هذه الثنائيات الفكرية متمثلة أساساً في (البناء، 2013، صفحة 59، 60):

1- معادلة عوامل السقوط والنهوض بين الداخل والخارج

2- معادلة رؤية النهوض بين الأصالة والمعاصرة

3- معادلة وقود النهوض بين المنهج والمفردات

4- معادلة مادة النهوض بين الحقوق والواجبات

5- معادلة جنود النهوض بين الفكر والروح

6- معادلة طائفة النهوض بين جناحي الفرد والمجتمع

7- معادلة حركة النهوض بين الأفكار والأفراد

8- معادلة جسم النهوض بين المضامين والأشكال

5. الخاتمة:

لقد حاولنا في ثنايا هذه الدراسة بإيجاز، الوقوف عند أحد أهم أعلام الجزائر التي سطع نجمها في القرن العشرين في مجال الفكر والإبداع الحضاري، من خلال رصد أهم مقارباته ونظرياته، لاسيما تلك التي عالجت مشكلات الحضارة و النهضة، فبعد حوالي نصف قرن من الزمن على وفاة الرجل رحمة الله عليه، إلا أن آثاره وأعماله ماتزال حاضرة في وجداننا رغم رحيله عنا، وهذا من خلال أفكاره وتحليلاته التي ما تزال تعرف صدق في وقتنا الراهن، وتثير من ورائها العديد من الإشكاليات، خاصة قضايا التنمية، التخلف، التأخر الحضاري، الغياب عن ساحة المنافسة...، وغيرها من المسائل التي عالجها في تلك الفترة، مما يدل على عمق تحليلاته ونظريته الثاقبة للأحداث والواقع، وبالتالي، فقد فاق أقرانه ونظرائه المفكرين كثيرا، نظرا لقدرة على تشخيص واقع الأمة العربية الإسلامية وما تعانيه من ركود وجمود ثقافي وحضاري، وتبيان مكامن الضعف والهوان، من جهة، ورصد حلول العلاج للداء الذي أصاب العالم الإسلامي من جهة أخرى، فمقارنته لمشكلات العالم الإسلامي وتصورات له لسبل الخروج منها نكاد نجزم بأنها تكاد تكون منفردة وحصريّة ولم يسبقه إليها أحد، بحيث نفتقد في عصرنا الحالي (الألفية الثالثة) لرؤية حضارية شاملة كالرؤية التي قدمها بن نبي خلال أربعة عقود من العطاء والفكر.

لذا، نجد أنفسنا الآن -بأسى كبير- مقصرين في حق الرجل رحمه الله، وغير آبهين لميراثه الفكري - الحضاري الثري الذي أفنى عمره جاهدا في التنظير له من خلال دراساته العميقة وتحليلاته الجادة لواقع مجتمعات العالم الإسلامي، ولم نحسن كذلك محاولة استثماره وفقا للوجهة التي رسمها بن نبي، وفشلنا أيضا حتى في النهل من مقاصده ومآثره، في حين أنه قد ذيع صوته خارج الجزائر وحظي باهتمام العديد من العلماء في مختلف بقاع العالم، كما شهد له الغرب بذلك، جراء فلسفته ورؤيته الحضارية المتميزة، بحيث أن العديد من الجامعات المرموقة نُهلت من كتبه واستلهمت من أفكاره. وعليه، فإننا مطالبون جميعا أكثر من أي وقت مضى بضرورة العودة الى دراساته وأبحاثه، وإعادة قراءة وكتبه اسهاماته الفكرية لعنا نستطيع تغيير مشهدنا الحضاري وتحقيق ما كان يصبو إليه الرجل طوال مساره الشخصي والعلمي.

Références

BENNABI, M. (1990). *Le problème des idées dans le monde musulmans*.

Alger, Algeria: El-Bay'Yinate édition.

dfgf. (fgf). *gdf*. fdg: dfg.

DILMI, Z. (2013, 12). Malek BENNABI (1905–1973 E C) et les conditions d'une nouvelle renaissance de la société arabo-musulmane. Montréal,

Canada: uiniversité de Montréal. Consulté le 03 23, 2023, sur

<https://www.papuris.bib.umontreal.ca.xmloui.handle>.

HAMRI, J. E. (2018). L'idée religieuse dans l'œuvre de l'intellectuel algérien

Malek Bennabi (1905–1973) : une injonction pour la société musulmane de faire l'Histoire. *thèse du doctorat non publiée*.

université du strasbourg, (France).

ROCHER, G. (s.d.). la notion de culture. Consulté le 07 03, 2021, sur

<https://www.jmt.sociologue.uqac.ca/word.pdf>

قطر، الدوحة. (155, Vol. 1 ط 1) (éd. العروج الحضاري بين مالك بن نبي وفتح الله غولن). (2013). ف. البنا

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

وزارة الأوقاف : قطر، الدوحة. *أتمودج مالك بن نبي : الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري*. (2000). ب. ب. الحسن

والشؤون الإسلامية.

قطر، الدوحة. (73, Vol.) *أتمودج مالك بن نبي : الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري*. (2000). ب. ب. الحسن

إدارة الشؤون الدينية والأوقاف.

المؤسسة : بيروت. *دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر : فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي*. (1993). س. الخطيب

الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

الشبكة العربية للأبحاث والنشر : بيروت. *حياته وفكره : مالك بن نبي*. (2012). ا. ع. العويسي

مدرسة فكرية : مالك بن نبي". (2021, 07 26). Récupéré sur

<https://www.aldjazeera.net/2010/12>

2، *جامعة وهران*. قراءة تربوية نوعية لفكر مالك بن نبي : تربية إنسان ما بعد الحضارة. (2015/2016). ب. م. باي

جامعة وهران : الجزائر، وهران. *كلية العلوم الاجتماعية، قسم علم النفس والأطوفونيا،*

دار الفكر : دمشق. *عصره وحياته ونظريته في الحضارة : مالك بن نبي*. (2010). ف. برون

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية : الجزائر. *فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي*. (2004). ا. ض. بشير

نظرية الحضارة في فكر مالك بن نبي: دراسة في مقارنته لشروط النهضة

- إدارة البحوث والدراسات الإسلامية: قطر. (1 ط. Vol.) *قراءة في فكر مالك بن نبي*. (2012). 1. ع، بوخلخال، مذكره ماستر غير منشورة، "مفهوم الإنسان في الفكر الحضاري عند مالك بن نبي"، (2018/2019). 1، بوزياني، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الاجتماعية، شعبة، بسكرة، الجزائر، الفلسفة العامة،
- قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبي في بناء الأفراد وإصلاح المجتمعات العربية في ظل العولمة " (2015). ص، بوعزة، Consulté le 07 25, 2021, sur <https://www.asjp.cerist.dz>
- 21(47). *مجلة اللغة العربية*. "البعد الإنساني في فكر مالك بن نبي"، (2019). ع، بيدي، Consulté le 08 01, 2021, sur <https://www.asjp.cerist.dz/article>
- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية: جامعة الجزائر. "مشكلة التغيير عند مالك بن نبي" (2004/2005). ل، حميدي، قسم الفلسفة.
- Consulté le 07 29, 2021, sur <https://www.ejournaliainbengkulu.ac.id>
- مقال متوفر على الرابط 60، ص "الفكر التربوي عند مالك بن نبي بين ثنائية الحضارة والتربية"، (s.d.). 4، إ، غانم، <https://www.ejournaliainbengkulu.ac.id>. (تاريخ التصفح: 29/07/2021).
- "الفكر التربوي عند مالك بن نبي بين ثنائية الحضارة والتربية"، غانم ابتسام ، 4- Récupéré sur <https://www.ejournaliainbengkulu.ac.id>. مقال متوفر على الرابط 60ص (تاريخ : 29/07/2021): <https://www.ejournaliainbengkulu.ac.id>
- 06(02). *مجلة العلوم الإسلامية والحضارة*. "لماذا مالك بن نبي اليوم؟"، (جوان، 2021). ب. ب، لحسن، دار نايا، محاكاة: سوريا، دمشق. (1 ط. Vol.) *دراسة إستقرائية مقارنة: مالك بن نبي*. (2012). 1. م، لمشيشتي، للدراسات للنشر والتوزيع.
- مجلة مفاهيم*. "نحو وعي تحضوي جديد، موقف مالك بن نبي من إنتاج المستشرقين" (7 مارس ع، 2020). خ، مزاتي، *للدراستات الفلسفية والإنسانية المعمقة*.
- Consulté le 08 01, 2021, sur <https://www.djazairpress.com.akhbar>
- امعة محمد خيضر بسكرة، كلية العلوم 2. "مالك بن نبي وموقفه من قضايا عصره" (2012/2013). ي، موساوي، الجزائر، الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، شعبة التاريخ
1. (د. Éd.)، المعاصر 1. (د. 1 ط. Vol.) *دراسة تحليلية ونقدية: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة*. (1998). ز، ميلاد، دار الفكر: سوريا، دمشق.

- دار الفكر المعاصر: لبنان، بيروت. (ط1. Vol.) تأملات. (1979). ب. م. دبي.
- دار الفكر المعاصر: بيروت. (ط2. Vol.) مذكرات شاهد للقرن. (1984). ب. م. دبي.
- دمشق (Trad.) شاهين. ا. ع. (ط3. Vol.) شبكات العلاقات الاجتماعية: ميلاد مجتمع. (1986). ب. م. دبي،
دار الفكر: سوريا.
- دار الفكر: سوريا، دمشق (Trad.) شاهين. ا. ع. (ط5. Vol.) وجهة العالم الإسلامي. (1986). ب. م. دبي.
- دار الفكر: سوريا، دمشق (Trad.) الشريف. ا. (ط2. éd.) فكرة كومونيلث إسلامي. (2000). ب. م. دبي.
- دار الفكر: لبنان، بيروت (Trad.) شعبو. ب. ب. (ب.) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. (2002). ب. م. دبي
المعاصر.
- دار الفكر: دمشق. (ط1. Vol.) مجالس دمشق. (2005). ب. م. دبي.
- دار الفكر: سوريا، دمشق. (ط4. Vol.) من أجل التغيير: مشكلات الحضارة. (2005). ب. م. دبي.
- خندودي. ا. ن. (ط1. Vol.) (1932-1940 الجزء الأول) مذكرات:، العفن. (2007). ب. م. دبي (Trad.)
دار الأمة: الجزائر.
- دار الخلدونية للنشر: الجزائر. (ط1. Vol.) موقف مالك بن نبي من الفكر الغربي الحديث. (2010). ح. م. يوسف.